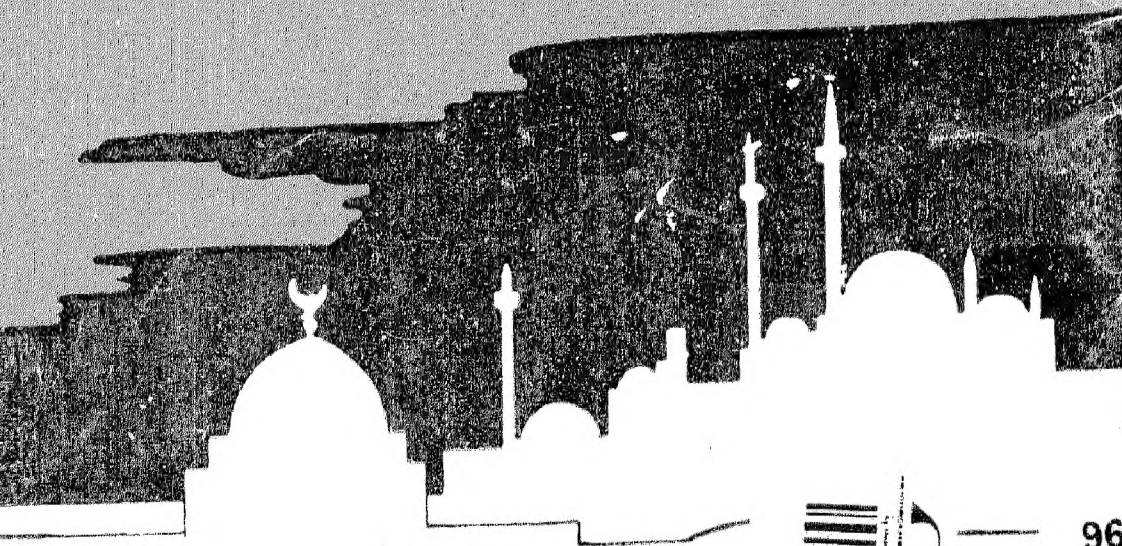


١٥٠٠



غزة الثورة

0198163



Bibliotheca Alexandrina

جمال عبد الناصر

الأستاذ الدكتور
محمد العزیز زرقان
مدير قسم اللغة العربية
الموسم
الاسكندرية

فلسفة الثورة

الجزء الأول

ليست فلسفة - محاولات لم تتم - ليست مجرد تمرد - كنا في فلسطين
واحلامنا في مصر - احمد عبد العزيز قبل ان يموت - درس من اسرائيل -
ايام التلمذة - الحقيقة والفراغ - لماذا كان لابد ان يتحرك الجيش -
الصورة الكاملة - الطبيعة والجموع - القصي اماني - نموذج من أعضاء مجلس
الثورة - ازمت نفسية - ثورثان في وقت واحد - لكيلا يقع تصادم على الطريق.

قبل أن امضى في هذا الحديث أريد أن أقف قليلاً عند كلمة
« فلسفة » ..

ان الكلمة ضخمة وكبيرة ..

وأنا أحس وأنا واقف حيالها انى أمام عالم واسع ليس له
حدود ، وأشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر
ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد ، من الشاطئ الذى أقف فيه ،
شاطئاً آخر انتهى اليه ..

والحق انى أريد أن اتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى
سأقوله ، ثم أنا أظن أنه من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة
الثورة .

من الصعب لسبيين :

اولهما أن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه اساتذة
يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء (١)
أو كذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح اى شعب ، جيلاً بعد جيل ، بناء يرتفع حجراً فوق
حجر ..

وكما ان كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته
قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب ..

(١) يعنى انه لايمكن ان تقع حادثة من حوادث التاريخ دون ان يكون لها
سبب أو اسباب من الماضي ، لان التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، كل حلقة منها
متصلة بالحلقة التى قبلها والحلقات التى بعدها ، ولا يمكن ان يكون بين هذه
الحلقات فراغ ليس فيه الا الهباء .

فلسفة الثورة ٧

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو في نفس الوقت
مقدمة لحدث ما زال في ضمير الغيب ..

* * *

ولست أريد أن ادعى لنفسي مقعد استاذ التاريخ ..
ذلك آخر ما يجري به خيالي ..

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلييد مبتدئ ، في دراسة
قصة كفاح شعبنا ، فاني سوف أقول مثلاً ان ثورة ٢٣ يوليو
هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر منذ بدأ في العصر
الحديث بفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه ، وفي أن تكون له نفسه
الكلمة العليا في مصيره ..

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه ، يوم تزعم
السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد علي واليا على مصر ، باسم
شعبها (١)

(١) كان السيد عمر مكرم أول مصري في التاريخ الحديث ، نادى بحق
الشعب في الحرية وفي السيادة . وكان أول شهرته خلال الحملة الفرنسية على
مصر . اذ كان من قواد حركة المقاومة الشعبية التي انتهت بجلاد الفرنسيين ،
ثم قاد حركة المقاومة ضد طغيان المماليك والباشا العثماني . وكان محمد علي في
ذلك الوقت ضابطا لاحدى الفرق العثمانية في مصر ، فانضم الى حركة المقاومة
الشعبية . ووثق صلته بالزعيم عمر مكرم ، فانخدع به ورشحه للولاية ، فبايعه
الشعب واليا وكتب زعماءه بذلك الى الخليفة العثماني في استنبول ، فآقر
الخليفة هذه البيعة مكرها ، نزولا على ارادة الشعب . فلما تم لمحمد علي
ما اراد ، وصار واليا على مصر تنكر للشعب ، وخان عهده للزعماء ، ونفى السيد
عمر مكرم الى دمياط ، ثم الى طنطا . فظل منفيا حتى مات .

وصار عرش مصر وراثا لاسرة محمد علي ، يتوارثه اسمع من امير ، وكان
فاروق الخالوع آخر هذه السلسلة ، فابعد عن العرش في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢
ثم انتهت الملكية واعلنت جمهورية مصر في يونيو سنة ١٩٥٣ ، بعد قرن ونصف
قرن من اعتلاء محمد علي لعرش مصر .

وقام بمحاولة لم تحقق له الامل الذى تمناه ، يوم حاول مرابى
أن يطالب بالدستور (١) .

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الامل الذى تمناه ، في
فترة القليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرباية وثورة سنة
١٩١٩ . (٢)

(١) كان احمد عربى ضابطا في الجيش المصرى ، وكان مصريا صميما ، في
حين كان اكثر ضباط الجيش من التردد والشكس والارمن والارناؤوط . ولم يكن
مسموحا للضباط المصريين أن يتجاوزوا الترقية رتبة معينة ، مهما بلغوا من
النشاط والكفاية ، وكانت مرافق البلاد كلها في أيدي الاجانب ، وكان الخديوى
توفيق يقرهم ويحتفظهم ويجعل لهم الامتياز والسيادة على اهل البلاد . وكان
نظام الحكم استبداديا والضرائب ثقيلة ومجحفة ، وخزانة الدولة خاوية ،
والديون التى تورط فيها اسماعيل بحمافة تثقل كاهل الحكومة والاهاالى وتجعل
للدائنين الاجانب السلطة العليا .. رأى احمد عربى هذا ، ورآه زملاؤه
الضباط المصريون في الجيش ، فاجتمعوا امرهم على خطة لمقاومة هذا الظلم ،
ولاصلاح نظام الحكم والاحتراف بحق الشعب في السيادة ..

واجتمع الجيش كله في ميدان عابدين ، ليطلب الى الخديوى باسم الشعب
اصلاح اداة الحكم ، وانشاء حكم نيابى ، والحد من سلطة الاجانب .. فاضطر
توفيق الى الاستجابة لطالب الشعب ، وحقق له ما اراد . ثم راح يدبر امره
مع الانجليز في الخفاء ، ليقتل على روح المقاومة في الشعب ، وكانت العاقبة كما
اراد ، فاحتل الانجليز مصر . واعتقلوا احمد عربى وزملاؤه ، ونفوههم الى احدى
جزر المحيط الهندى ، وكان هذا اول الاحتلال الذى جثم بالقائه على صدر
الوطن التتين وسبعين سنة حتى اكبرهم المصريون في سنة ١٩٥٤ على الجلاء .

(٢) في هذه الفترة التى عاشتها مصر بين الثورتين ، في اواخر القرن المافى
واوائل هذا القرن ، انتشرت الافكار الحرة ، وبدا الوعى القومى ينضج . وكان
آراء السيد عبد الرحمن الكواكبي والسيد جمال الدين الافسانى ، الرها في
ايقاظ الوعى ، فامن الشعب بحقه في الاستقلال والحرية . وبدا يدبر امره
لتحقيق هذين المطلبين . وكان من زعماء هذه الفترة محمد عبده ، ومصطفى كامل ،
ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاویش .

وكانت هذه الثورة الاخيرة - ثورة ١٩١٩ بزعماء سعد زغلول - محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذي تمناه (١) .

وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين (٢) ، وليس صحيحا كذلك أنها قامت

(١) لما احتلت بريطانيا مصر في سنة ١٨٨٢ زعمت أن احتلالها مؤقت ، وأنها ستجلبو عن مصر حين تستقر أمورها الداخلية ، وظلت على هذا الزعم حتى نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فكشفت عن خيبتها وفرضت على مصر الحماية البريطانية ، ولكي تخدر شعور المصريين زعمت أن هذه الحماية مؤقتة كذلك ، وأن ظروف الحرب هي التي فرضتها .

فلما انتهت الحرب في أواخر سنة ١٩١٨ أجمع المصريون على ضرورة إنهاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، وذهب سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية الى دار المتد البريطانى في القاهرة ، مع على شعراوى وعبد العزيز فهمى ، ليطلبوا اليه باسم مصر ، أن ينقل الى حكومته في لندن رغبة المصريين في إنهاء الحماية والاعتراف بالاستقلال ، فلم تلق بريطانيا صيرا على هذا المطلب ، واعتقلت سعد وأصحابه ، ونهتهم الى مألطة ، فكان هذا سببا لاشتعال ثورة سنة ١٩١٩ ، وتعتبر هذه الثورة مرحلة من المراحل الرئيسية في تاريخ العلاقات بين مصر وبريطانيا .

(٢) كانت فلسطين - الى الحرب العالمية الأولى - جزءا من أملاك الدولة العثمانية فلما نشبت تلك الحرب ، احتلتها بريطانيا باعتبارها من أملاك دولة معادية . ولكي تكسب بريطانيا تأييد العرب لها في تلك الحرب . أعلنت أنها سترد اليهم بلادهم وتعترف باستقلالهم ، اذا اعانوها على حرب الترك ، فكان هذا الوعد سببا لانضمامهم الى صف بريطانيا في تلك الحرب ، ولكن بريطانيا لم تكن تبلى النعم ، حتى تنكرت للعرب ، واعتبرت بلادهم فتيمة حرب ، وفرضت سلطاتها على فلسطين ، لتعهد لليهود أن ينشئوا لهم فيها وطنا قوميا ، فثار عرب فلسطين على هذا الوضع ولم يرتضوه ، ولكن بريطانيا لم تبال بشورات العرب المتعاقبة . واخذت تهيب لليهود في سائر بلاد العالم ، وسائل الهجرة الى فلسطين والاستقرار بها لتكون لهم وطنا ، حتى اجتمع نحو ثلث مليون ، يزاحمون أهل البلاد في أراضهم ويزحزونهم عن أرضهم . فلما بلغ اليهود من الكثرة والقوة في فلسطين هذا المبلغ ، انسحبت منها بريطانيا وتركت العرب الوطنيين =

بسبب الاسلحة الفاسدة التي راح ضحيتها جنود وضباط (١) .
وابعد من ذلك عن الصحة ما يقال من أن السبب كان أزمة انتخابات
نادى ضباط الجيش (٢) .

= واليهود الطارئين يتقاتلون وجها لوجه ، هؤلاء يطعمون في الاستيلاء على وطن لم
يكن لهم فيه شبر من أرض ، وأولئك يدافعون عن وطنهم ومشوى آبائهم
واجدادهم .

ولم يكن لعرب فلسطين من القوة ما يهيء لهم أسباب الغلبة ، فقررت
الدول العربية أن تساعد على القفر بحقهم وطرد العدو الدخيل عن بلادهم .
وبدأت فرق المتطوعين المصريين تأخذ مراكزها في ميدان المقاومة بقيادة
ضباط مصريين أحرار .. تطوعوا لبذل دمائهم في سبيل الإبقاء على عروبة
فلسطين ، وكان لهم بلاد يذكر بالاعجاب .

لم دخل الجيش المصري فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأول في البلاد
وفر اليهود أمامه مذمورين يتخلون عن معاقلم معقلا بعد معقل . وقهرت تبشير
النصر القريب ..

في أثناء ذلك وقلوب العرب في شتى بلادهم تخفق بعنف وهم يترقبون
الساعة التي تأتيهم فيها أنباء النصر الحاسم ، حدثت خيانة كبيرة . كان فاروق
ملك مصر المخلوع شريكا فيها ، فوقعت الدول العربية صك الهدنة وهي في أوج
انتصارها .. وأفلتت الثورة الدانية من أيدي العرب ..

(١) في أثناء هذه الهدنة التي فرضتها الخيانة على الجيش المصري
والجيوش العربية المنتصرة ، زودت بريطانيا وحلفاؤها اليهود بكل ما يحتاجون
اليه من الاسلحة الثقيلة والخفيفة ، ليكونوا على أهبة كاملة حين تستأنف
الحرب . وكان فاروق وسماسته خلال ذلك يستولون على أموال الخزنة بنحوى
شراء الاسلحة للجيش المرابط في ميدان القتال ، فيأخذونها لأنفسهم ، ويرسلون
الى الجيش بشمها أسلحة فاسدة ، تصيب أصحابها ولا تصيب العدو ، فكثروا
بذلك عونا لليهود على النصر ، وراحت فلسطين تنسأ وغلب عليها اليهود .
ولم تزل تحت أيدي اليهود وأهلها مشردون في الفلوات لا يجدون مأوى .. !

(٢) كان الضباط الأحرار قد شككوا هيئتهم قبل ذلك وصاروا قوة ذات
اثر في كل فرقة من فرق الجيش ، استعدادا لتخليص البلاد من الظلم ، ومن
الفساد ، ومن الاحتلال البريطاني . وكان فاروق يضع على رأس الجيش جماعة =

أما الأمر في رأيي كان أبعد من هذا وأعمق أخوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم في فلسطين أو لأن فضيحة الأسلحة الفاسدة أزهقت أعصابهم أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم في انتخابات نادي ضباط الجيش ، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكن أقرب الأشياء إلى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وإن كانت الأسباب التي أدت إليه منصفة عادلة في حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة ..

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الإسراع في طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بي من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير في الثورة ، أن أعود بذاكرتي وأتعقب اليوم الأول الذي اكتشفت فيه بدورها في نفسي .

أن هذا اليوم أبعد في حياتي من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أيام ابتداء أزمة نادي الضباط ، ففي ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الأحرار قائما بياض عمله ونشاطه ، بل أنا لا أنحالي إذا قلت أن أزمة انتخابات النادي أثارت أكثر من أي شيء آخر نشاط الضباط الأحرار فقد شئنا في ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم - في حياتي أيضا - أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها ، وكانت

= من سمائته ويطاقته هم عناوين الجيش البارزة أمام الناس ، فمنهم الرؤساء الكبار ، والقادة العاملون ، وممثلو الجيش في كل مناسبة يراد أن يمثل فيها الجيش ، ومنهم هيئة الإدارة في نادي الضباط ، فلما حان موعد الانتخاب لرئاسة النادي في سنة ١٩٥١ ، حرص الضباط الأحرار على إبعاد سماسة فاروق ويطاقته من رئاسة النادي واتخذوا رئيسا منهم تحديا لإرادة فاروق فطاش صواب فاروق والى الانتخاب ، وكان ذلك أول مظهر صريح من مظاهر الخلاف بينه وبين الجيش .

منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الاسلحة الفاسدة .

بل ان هذا اليوم في حياتي أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ، ذلك اليوم الذي كان بداية حياتي في حرب فلسطين .

وحين احاول الآن أن استعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين اجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب في فلسطين ، ولكن احلامنا كلها كانت في مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض امامنا في خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للدباب ترعاه ..

وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الاحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز .

في فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محيي الدين (١) واخترقا الحصار الى القالوجة ، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية وكان حديثنا الشاغل ووطننا الذي يتعين علينا أن نحاول انقاذه ..

وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين وقال لي وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

— هل تعلم ماذا قال لي احمد عبد العزيز (٢) قبل أن يموت ؟

قلت :

(١) من اعضاء مجلس قيادة الثورة .

(٢) فدائي مصري عظيم . كان فاسطيا في الجيش المصري . ثم قاد قوات المتطوعين المصريين للدفاع عن فلسطين . قيل ان تقرر الدول العربية الاشتراك في المعركة ، وكان له بلاء مشهود في كثير من المعارك ، وقضى شهيدا في الميدان سنة ١٩٤٨ .

— ماذا قال ... ؟

قال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة وفي ميثية نظرة
أعقب :

— لقد قال لى : اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الاكبر هو في
مصر ...

ولم التق في فلسطين بالاصدقاء الذين شاركوني في العمل من
أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التي أنارت أمانى السبيل .
وانا اذكر ايام كنت اجلس في الخنادق واسرح بذهني الى
مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضربا
بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا .

وكثيرا ما قلت لنفسى :

« ها نحن هنا اولاء في هذه الجحور محاضرين . لقد غرر بنا ،
ودفعنا الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات
وشهوات وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح »

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجد
خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ،
واقول لنفسى :

هذا هو وطننا هنا ، انه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير ..

ان الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك ..
صورة مصفرة ..

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والاعداء ، وغرر به ..
ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات
وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح ..

وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين ولم تكن التجارب هي التي قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل ان الأعداء أيضا لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط اسرائيلي اسمه «يردهان كوهين» ، ونشرتها له جريدة « جويش أوبرزفر » وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي اثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذي يطرقه جمال عبد الناصر معي دائما هو كفاح اسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومة السرية لهم في فلسطين وكيف استطعنا أن نجند الرأي العام في العالم وراءنا في كفاحنا ضدهم » .

* * *

ثم ان هذا اليوم - اليوم الذي اكتشفت فيه بدور الثورة في نفسي - ابعث من جاذب ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ (١) الذي كتب بعده خطابا الى صديق قلت له فيه :

(١) في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ كانت الجيوش الالمانية قد اجتازت حدود مصر الغربية بقيادة روميل تتعقب الجيوش البريطانية النهمزة . حتى بلغت (العلمين) على مقربة من الاسكندرية ، وادرك الانجليز يومئذ ان آخرتهم في مصر قد حانت . وكان أشد مايفشونه ان ينضم المصريون الى اعداء بريطانيا ، انتقاما لانفسهم من الظالم التي نالهم بها الاحتلال البريطاني خلال ستين سنة ، فكانما خيل للانجليز انهم يستطيعون ان يتقوا هذا الشر ، لو كان على راس الحكومة المصرية رجل يامنون جانيه ، ويامنون جانب الشعب معه ، فذهب سفيرهم في ٤ فبراير الى قصر الملك يطلب اليه اسناد رئاسة الوزارة الى مصطفى النحاس ، وانذروه ان لم يفعل ، ان يتحمل نتائج رفضه ، ثم زحفت دبابات الانجليز الى قصر الملك ، فخضع فاروق واسند رئاسة الوزارة الى مصطفى النحاس استجابة لرغبة بريطانيا .

« ما العمل بعد ان وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خائعين .. ؟ »

« الحقيقة انى اعتقد ان الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده ، بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين يتوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات .. »

وطبعا هذا حاله أو تلك عاداته ..

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح والاحساس فيه ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون الا عن الفساد والهو . أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا - مع ضعفهم الظاهر - ويردوا للبلاد كرامتها ، ويقسلوها بالدماء ، ولكن ان غدا لناظره قريب .

لقد حاول البعض بعد الحادث أن يعملوا شيئا بفية الانتقام، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى ..

والواقع أن هذه الحركة .. ان هذه الطعنة ، ردت الروح الى بعض الاجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها ، وكان هذا درساً قاسياً .

وكذلك فان هذا اليوم أبعد في حياتي من الغوران الذي عشت فيه أيام كنت طالبا امشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣

وقد عاد الدستور بالفعل - في سنة ١٩٣٥ (١) .. وأيام كنت

(١) لم يكن قصد الملك فؤاد . والانجليز من وراله - حين أعلن الدستور في سنة ١٩٢٣ ودعا الشعب الى انتخاب ممثليه في البرلمان - الا ان يصدر وحدة الشعب ، ويشغله عن آمانيه القومية ، وقد تحقق له وللانجليز ما ارادوا من ذلك فتصبحت وحدة الشعب بالنافسات الحزبية حول مقاعد البرلمان ومناصب الحكم عن آمانيه القومية . وقد تحقق له وللانجليز ما ارادوا من ذلك . =

استعى منع وفود الطلبة ، الى بيوت الزعماء نطلب منهم ان يتحدثوا
من اجل مصر ، وتآلفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على اثر
هذه الجهود ..

واذكر اننى فى فترة الفوران هذه كتبت خطابا الى صديق من
اصدقائى - قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :
« احدى .. »

« خاطبت والدك يوم ٣٠ اغسطس فى التليفون وقد سألته
عنك فاجبرنى انك موجود فى المدرسة .. »

تصدت وحدة الشعب التى دألت كيان بريطانيا فى سنة ١٩١٩ وصار
الشعب احزابا وشيعا يكيد بعضهم لبعض . ويتربص بعضهم لبعض ، وشغلهم
الصراع على المناصب من الكفاح لتحقيق الاستقلال .

ورأى فؤاد الفرصة سانحة فى سنة ١٩٢٠ ليسترد الدستور الذى اعلنه فى
سنة ١٩٢٣ ليعود الى نوع من حكم الفرد مموه بعنوان دستورى زائف ، فاعلن
الفاء الدستور واستبدل به دستورا آخر لا يحق للشعب سلطة ولا سيادة ،
وقهر البلاد بالعنف على الاستسلام والرضا . وفرض عليها حكومة استبدادية ،
لتنحل صفة دستورية زائلة ، بضع سنين ، ولكن الشعب لم يخضع ، ولم يتخل
من مثله العليا وامانيه القومية التى يكافح فى سبيلها منذ سنين ذات عدد ، فما
هو الا ان اتحت له الفرصة سنة ١٩٣٥ ، حتى لار ثورة حاطمة ، مطالبا بعودة
دستور سنة ١٩٢٣ .

وطا فؤاد رأسه للشعب ، كما طاطا اخوه توفيق من قبل للثورة العربية
ورد للشعب دستور سنة ١٩٢٣ ، ودعاه لانتخاب ممثليه فى البرلمان على النظام
الذى يرضيه .. ولكن كما كان خضوع توفيق فى سنة ١٨٨١ ، كان خضوع
فؤاد من بعد تمهيدا لمعاملة ١٩٣٦ التى تربت مصر الى هجلة بريطانيا رباطا ابديا
لا فكاه منه فعلى اثر عودة الدستور ، تآلفت الجبهة الوطنية التى تضم زعماء
الاحزاب جميعا لتدخل مع بريطانيا فى مفاوضة جديدة تحل المسائل المعلقة بين
البلدين ، ثم انتهت هذه المفاوضات الى المعاهدة الابدية التى مزقتها الثورة
الشعبية بعد ذلك واكرهت التجليل على الجلاء الذى لارجمة بعده .

« لذلك عولت على أن أكتب اليك بما كنت سأكتبك فيه .
تليفونيا .

« قال الله تعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...)
فإن تلك القوة التي نستعد بها لهم .. ؟

« ان الموقف اليوم دقيق ، ومصر في موقف أدق .. ونحن
نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان ،
فأين من يهدم هذا البناء .. ؟ »

ثم مضيت في الخطاب الى آخره ..

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بدور الثورة
في أعماقي .. ؟

فلو أضيف الى هذا كله ، ان تلك البذور لم تكن كامنة في
أعماقي وحدي ، وانما وجدت بها كذلك في أعماق كثيرين غيري هم
الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها
داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت في أعماقنا حين
ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلفه في وجداننا جيل سبقنا ..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذي من
أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت أن
هذا الحديث يلزمه أسئلة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة
في أعماق تاريخ شعبنا ..

أما السبب الثاني فهو أنني كنت بنفسى داخل الدوامة
العنيفة للثورة ..

والذين يعيشون في أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض
التفاصيل البعيدة عنها ..

وكذلك كنت بايماني وعقلي وراء كل ما يحدث ، وبنفس
الطريقة التي حدث بها ، واذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى
حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعاني المستترة وراءه .. ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا شيء يمكن أن يعيش في فراغ ..

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش في فراغ ..
والحقيقة الكامنة في أعماقنا هي : ما نتصور نحن أنه الحقيقة ،
أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا إليها نفوسنا ..

نفوسنا هي الوعاء الذي يعيش فيه كل ما فينا ، وعلى شكل
هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق (١) .

وانا احاول - بقدر ما تستطيع طاقتي البشرية - أن أمنع
نفسى من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولكن الى أى حد سوف
يلازمنى التوفيق ... ؟

هذا سؤال .. !

وبعده اريد أن اكون منصفاً لنفسي ، ومنصفاً لفلسفة الثورة ،
فأتركها للتاريخ بجمع شكلها في نفسي ، وشكلها في نفوس غيري ،
وشكلها في الحوادث جميعا ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة
كاملة (٢) .

واذن فما الذى اريد أن اتحدث عنه اذا كنت قد استعبدت
كلمة « فلسفة » ؟ الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيان :

أولهما مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة
المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ، حتى منتصف ليل ٢٣ يوليو .

(١) يعنى اننا نستطيع أن نحكم على الشيء بدقة تجعل حكمنا عليه قريبا
من الحقيقة ، اذا كنا نحن أنفسنا جزءا من هذه الحقيقة ، فان شرط القاضي أن
يتجرد والا يحكم في قضية يتصل موضوعها بشخصه أى اتصال ، حتى لا يثلون
حكمه بلون من ألوان عاطفته .

(٢) يعنى انه مادام التجرد للحكم غير مستطاع ، فان الانصاف يفرض عليه
أن يترك الحكم للتاريخ .

وثانيهما تجارب وضعت هذه المشاعر ، بأملها المبهم ، وفكرتها المحددة ، وتديرها العملى . موضع التنفيذ العملى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث ..
لطالما ألح على خواطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ »

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدي أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصره ..

وإذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة .. ؟

ولقد آمنت بالجنديّة طول عمري ، والجنديّة تجعل للجيش واجبا واحدا هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن ، وليس على حدوده .. ؟

ومرة أخرى ، دعونى أنبه الى أن الهزيمة فى فلسطين ، والأسلحة الفاسدة وأزمة نادى الضباط ، لم تكن المنابع الحقيقية التى تدفق منها السيل ، لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ولكنها - كما سبق أن قلت - لا يمكن أبدا أن تكون هى الأصل والأساس ..

واذن فلماذا وقع على الجيش هذا الواجب .. ؟

قلت ان هذا السؤال طالما ألح على خواطرى ..

ألح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو ..

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به ..

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟

وكنا نقول : كنا نحن الشبيح الذى يؤرق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبيح أن يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هو ..

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله أننا كنا نشعر شعورا يمتد الى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبا وأنا اذا لم نقوم به نكون كأننا قد تخلىنا عن امانة مقدسة نيط بنا حماتها ..

ولكنى اعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ..

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هى بعينها تفاصيل الصورة ..

وانا اشهد انه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو ..

لقد كنت اتصور قبل ٢٣ يوليو ان الأمة كلها متحفزة متأبهة، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوا متراسة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ..

وكننت اتصور دورنا على انه دور طليعة الفدائيين ، وكننت أظن ان دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراسة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل لقد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل الى أنى أسمع صليل الصفوف المتراسة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى ، من فرط أيمانى به ، حقيقة مادية وليس مجرد تصورات خيال ..

ثم فاجانى الواقع بعد ٢٣ يوليو ..

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان : وخلصت
الطافية ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة
المنتظمة الى الهدف الكبير ..

وطال انتظارها ..

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ما أبعد الحقيقة عن
الخيال .. !

كانت الجموع التي جاءت اشياغا متفرقة ، وفلولا متناثرة ،
وتغطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدأت الصورة يومها
قائمة مخيفة تنذر بالخطر ..

وساعتها احسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المראה ،
ان مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، بل انها من هذه الساعة
.. بدأت ..

كنا في حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ..

وكنا في حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف .

وكنا في حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع
والتكاسل . ومن هنا ، وليس من أى شيء آخر ، أخذت الثورة
شعارها (١) .

ولم تكن على استعداد ..

وذهبنا نلتبس الراى من ذوى الراى ، والخبرة من أصحابها
.. ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير ..

(١) شعار الثورة النظام - والاتحاد - والعمل ، وقد حلل الاستاذ عباس
محمود العقاد ووازن بينه وبين شعار كل من الثورة الفرنسية والثورة التركية ،
والثورة الروسية ، والثورة الصينية ، وأسهب في تحليل كل شعار منها ومدى
انطباقه على واقع كل ثورة من تلك الثورات . انظر « فلسفة الثورة في الميزان »
للاستاذ عباس محمود العقاد .

كل رجل قبلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر .. !
 وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة اخرى !
 ولو اطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا
 جميع الافكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله الا أن نجلس بين الأشلاء
 والأتقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس .. !
 وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالالوف ومئات الالوف ،
 ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق
 الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العدل ، كان الأمر منطقيا
 ومفهوما ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون
 طلبات انتقام .. كان الثورة قامت لتكون سلاحا في يد الأحقاد
 والبغضاء ..

ولو أن أحدا سألني في تلك الأيام : ما هو امر أمانيك ؟ لقلت
 له على الفور :
 — أن أسمع مصريا يقول كلمة انصاف في حق مصري آخر .
 وأن أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب
 لآخوانه المصريين ..
 وأن أرى مصريا لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصري آخر ..
 وكانت هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة ..
 كانت كلمة « أنا » على كل لسان ..
 كانت هي الحل لكل مشكلة ، وكانت الدواء لكل داء ..
 وكثيرا ما كنت أقابل كبراء — أو هكلنا تسميهم الصحف —
 من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم في مشكلة
 التمس عنده حلا لها فلم أكن أسمع الا أنا ..
 مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا
 فهم في العلم بها أطفال يحبون ..

ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبر بها ، اما الباقون جميعا فما زالوا في « ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود الى زملائي فأقول لهم في حسرة :

— لا فائدة .. هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزائر هاواي لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة « أنا » .. !



أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات .. ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامي منهم كثيرون .. وتكلموا طويلا ..

ومن سوء الحظ أن أحدا منهم لم يقدم لى أفكارا ، وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لى نفسه ، وكفائاته الخليقة وحدها بعمل المعجزات ، ورمقنى كل واحد منهم بنظرة الذى يؤثرنى على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود .. !

وأذكر أنى لم أتمالك نفسى فقمت بعدها أقول لهم :

« ان كل فرد منا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة ، ان واجبه الأول أن يعطى كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كاستاذة جامعات ، فكرتم فى طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عمالكم الأساسى ه لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن ..

ان كل واحد يجب أن يبقى فى مكانه ويبدل فيه كل جهده .

لانتظروا الينا ، لقد اضطررنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الا فى صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه . »

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن أقول لهم أنهم قبل أن يدعوهم الطارئ الذى دعاهم الى الواجب الأكبر كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم أن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا استأذلة في كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيازهم من ناحيتهم كجنود محترفين ..

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم أن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين رفقا ترقيات استثنائية في ميدان القتال في فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئا من هذا ، لأنى لا أريد أن أخاف الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم اخوتى وزملائى ..



واعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى التمس لهذا كله أعذارا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى - الى حد ما - الصورة الكاملة لحالة الوطن ، وأكثر من هذا أعطتنى الجواب على السؤال الذى قلت أنه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم - نحن الجيش - بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ١٩٥٥ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر ..

وأنا الآن أستطيع أن أقول أننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة ..

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه ..

وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لآبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت

بالثورتين ، ولكنها لم تعيشهما معا ، وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد .

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفنا مختلفة تتنافر تنافرا عجيبا ، وتتصادم تصادما مروعاً ..

أن الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وتربطها وتساوئها وتكرامها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

والثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية .. والأناية ..

وبين شقى الرعى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين : ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف ، وثورة تفرض علينا - برغم إرادتنا - أن نتفرق ، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا إلا فى نفسه ..

وبين شقى المرحى هذين - مثلاً - ضاقت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن يحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث إلا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها أفرادا وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها بحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المكنمة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ولم يحصد الشعب إلا الشكوك فى نفسه ، والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراد وطبقاته .

شحب الأمل الذى كان ينتظر أن يحققه ثورة ١٩١٩

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ،
والذى فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب ان تقوم قوة يقرب ما بين افرادها اطار
واحد يبعد عنهم ، الى حد ما ، صراع الأفراد والطبقات ، وان تكون
هذه القوة من صميم الشعب ، وان يكون فى استطاعة افرادها أن
يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية ما
يكفل لها عملا سريعا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على
الجيش ..

وهكذا لم يكن الجيش - كما قلت - هو الذى حدد دوره
فى الحوادث ، وإنما العكس كان اقرب الى الصحة ، وكانت
الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير
لتحرير الوطن ..



ولقد ادركت منذ البداية أن نجاحنا بتوقف على ادراكنا
الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فانا لم
نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن
نستطيع أن تؤخر مقارب الساعة أو تقدمها ونتحكم فى الزمن ..
وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التواريخ بمهمة
جندى المرور فتوقف مرور الثورة حتى تمر ثورة أخرى ، ونحول
تلك دون وقوع حادث اصطدام ، وإنما كان الشيء الوحيد الذى
نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان وننجو من أن يطحننا شفا
المرحى .. !

وكان لابد ان نسير فى طريق الثورتين معا ..

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية ، فخلعنا فاروق من
عرشه ، سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية ، فقررنا
تحديد الملكية .

ومازلت حتى اليوم اعتقد انه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو
محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمباداة ، لكى نستطيع أن

نحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد مهما بدا في بعض
الاحيان من التناقض في تصرفاتنا .

وحين جاءني واحد من اصدقائي يقول لى :

« انت تطالب بالاتحاد لمواجهة الانجليز ، وانت في نفس الوقت
تسمح لمحاكم القدر ان تستمر في عملها . »

استمعت اليه . . وكانت في خيالى ازممتنا الكبيرة ، ازمة
شقى الرحى . .

ازمة تقتضينا ان نتحد صفا واحدا وننسى الماضى . .

وثورة تفرض علينا ان نعيد الهبة الضائعة لقيم الاخلاق ولا
ننسى الماضى . .

ولم اقل لهذا الصديق : ان منغلنا الوحيد الى النجاة ، ان
نحتفظ - كما قلت - بسرعة الحركة والمباداة ، وبالقدرة على ان
نسير في طريقين في وقت واحد .

ولم اشأ انا ذلك ، ولا شأه كل الذين شاركوا في ثورة ٢٣
يوليو . .

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها
اليوم . .

الجزء الثاني

العمل الايجابي . الحماسة لا تكفى . الرصاص يتكلم . صراخ وهويل
في الليل . ما اسهل ان يراق الدم . جلدور في التاريخ . يا عزيز يا عزيز .
الفلولاد ينهار . سوف يتبلور هذا المجتمع . اعصاب الناس ومقولاتهم .
انفسنا الجميع . هذه حدودنا وذلك واجبتنا .

ولكن ما الذى يريد أن نصنعه ؟

وما هو الطريق اليه ؟

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة على السؤال الأول وأخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وإنما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه اجماع جيلنا كله .

أما الإجابة على السؤال الثانى « طريقنا الى هذا الذى نريد ، فإننا أعترف أنها تغيرت فى خيال كما لم يتغير شيء آخر ، وأكاد أعتقد أيضا أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !

وما من شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية . ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق الى التحرر والقسوة . فلكل عقدة العقد فى حياتنا .

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيرا حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وابتأت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها !

ولقد أحسست منذ انبثق الوعي فى وجدانى ، أن العمل الإيجابى يجب أن يكون طريقنا . ولكن أى عمل ؟

ولقد تبدو كلمة « العمل الإيجابى » على الورق كافية لتحل المشكلة ، ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف الصعبة التى عاشها جيلنا وفى المحن التى كانت تنشب أظفارها فى مقدرات وطننا ، لم تكن كافية !

وفى فترة من حياتى كانت الحماسة هى العمل الإيجابى فى تقديرى .

ثم تغير مثلي الأعلى في العمل الايجابى وأصبحت أرى أنه لا يكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة وانما على أن أنقل حماسى كى تضج بها أعصاب الآخرين .

وفى تلك الايام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورأى كثيرون . ولكن ضراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .

ثم أصبح العمل الايجابى فى رأى أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهائفة الثائرة ببيوتهم واحدا واحدا تطلب اليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة . ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيرة لايماني ، فان الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ .



وجاءت الحرب العالمية الثانية . وما سبقها بقليل على شبابنا.. فالهبتة وأشاعت النار فى خلجاته فبدأ اتجاهنا ، اتجاه جيل بأكمله ، يسير الى العنف .

وأعترف - ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف - أن الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه ، اذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجئت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أعد جرائمهم ، وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم وعلى الأضرار التى لحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجال الدين الذين كانوا يعيشون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير *
وما أكثر الحطط التي رسمتها في تلك الأيام ، وما أكثر الليالي
التي سهرتها أعد العدة للأعمال الايجابية المنتظرة ..
كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .
كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نقسّتر
بالظلام وكنا نرصد المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلاقات
الرصاص هي الأمل الذي نحلم به ..
وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازلت أذكر حتى
اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق الى نهايته .
والحق أننى لم أكن فى أعماقى مستريحا الى تصور العنف على
أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .
كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل
من الوطنية ومن الدين ومن الرحمة ومن القسوة ومن الايمان ومن
الشك ومن العلم ومن الجهل ..
ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت
فى خيالى ، تخبو جذورها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل
الايجابى المنتظر ..
وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى افكارى وأحلامى فى هذا
الاتجاه .
كنا قد أعددنا العدة للعمل ..
واخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق ..
ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل .
وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته فى
الليل ..
ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار ، وربطنا فرقة

الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم وربنا فرقة تنظيم خطة الافلات
الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ ..
وسار كل شىء طبقا لما تصورناه .

كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى اماكنها التي
حددت لها ، وأقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه
الرصاص ..

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ،
وبدأت عملية الافلات الى النجاة ، وأدركت محرك سيارتى وانطلقت
أغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه ..

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صرير وعويل . ولولة امرأة
ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة ..

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الشائنة ، والسسيارة
تندفع بى بسرعة ..

ثم أدركت شيئا عجيبا ..

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعى .

والصراخ والعويل واللولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعلت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت .
ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت الى بيتى واستلقيت على فراشى ، وفى عقلى حمى . وفى
قلبى وضميرى غليان متصل ..

وكانت أصوات الصراخ والعويل واللولة والاستغاثة مازالت
تطرق سمعى ..

ولم أتم طول الليل .

بقيت مستلقيا على فراشي في الظلام ، أشعل سيجارة ورا.
سيجارة وأسرح مع الحواطر الثائرة ، ثم تبدد كل خواطري على
الأصوات التي تلاقني .

• أكنت على حق ؟
وأقول لنفسى فى يقين :

– دوافعى كانت من أجل وطنى !

• أكانت تلك هى الوسيلة التى لا مفر منها ؟
وأقول لنفسى فى شك :

– ماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل ؟

• أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا
الواحد أو من واحد غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟
وأقول لنفسى فى حيرة :

– أكاد أحس أن المسألة أعمق .

• اننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضى من يجب أن
يمضى ، أم يجب أن يجب ؟

وأقول لنفسى وأشـاعاء من النـور تقرب بين الحواطر
المزدحمة :

– بل المهم أن يجب أن يجب . . . اننا نحلم بمجد
أمة . ويجب أن يبنى هذا المجد !

وأقول لنفسى ومازلت أتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملاها
الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات .

– واذن ؟

وأسمع هاتفًا يرد على :

– واذن ماذا ؟

وأقول لنفسى فى يقين هذه المرة :

في اذن يجب ان يتغير طريقنا .. ليس ذلك هو العمل الايجابي
الذي يجب ان نتجه اليه .. المسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة
وأبعد أغوارا .

وأحس براحة نفسية صافية ؛ ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه
هو الآخر أصوات الصراخ والعيول والولولة والاستغاثة ، تلك التي
ما زالت أصداؤها ترن في أعماقي ..

ووجدت نفسي أقول فجأة :

— ليتة لا يموت ! .

وكان عجيبي أن يطلع على الفجر ؛ وأنا أتمنى الحياة للواحد
الذي تمنيت له الموت في المساء ! .

وهرعت في لهفة الى إحدى صحف الصباح .. وأسعدني أن
الرجل الذي دبرت اغتياله .. قد كتبت له النجاة .

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية ..

وأما المشكلة الأساسية .. هي العثور على العمل الايجابي !
ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقي في عمل شيء أعمق
جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى في الصورة التي تحققت مساء
٢٣ يوليو ؛ ثورة منبعثة من قلب الشعب ؛ حاملة لأمانيه ، مكملة
لنفس الخطوات التي خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذي نريد أن نصنعه ؟ .

والثاني : وما هو طريقنا اليه ؟ .

وقلت: ان الاجابة على السؤال الأول أمل انعقد عليه الأجماع .

أما السؤال الثاني : طريقنا الى الذي نريد أن نصنعه - فهو الذي أطلت فيه الكلام حتى وصلت الى يوم ٢٣ يوليو ! .

ولكن أكان الذي حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه ؟

المؤكد أن الجواب بالنفي ، فإن تلك لم تكن الا الخطوة الاولى على الطريق .

والحق أن فرحة النجاح في ٢٣ يوليو لم تخدعني ؛ ولم تصور لي أن الآمال قد تحققت ؛ وأن الربيع قد جاء . بل لعل العكس هو الصحيح .

لقد كانت كل دقيقة تحمل الى انتصارا جديدا للثورة ؛ تحمل الى في نفس الوقت عبئا ضخما ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفي .

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث : « اني كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفها مترابطة منتظمة زاحفة » .

وقلت : انني تصورت دورنا على أنه دور الطليعة ؛ وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المترابطة المنتظمة .

ورسمت أيضا في ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التي انطلقت من عقالها في تلك اللحظات ؛ كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل أقول ان تلك كانت أقسى مفاجأة في حياتي !

ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذي حدث .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائي فتتحقق أحلامنا .

ولم يكن يمكن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات اجيال .

ولقد كان من السهل وقتها - وما زال سهلا حتى الآن - أن يرق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا العمل ؟

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة أى مشكلة من المشاكل هو ردها الى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر الى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن .

ولقد قلت مرة انى لا أريد أن أدعى لنفسى مقعد استاذ التاريخ ، فذلك آخر ما يجرى اليه خيالى ، وقلت انى سأحاول محاولات تلميذ مبتدئ فى التاريخ .

* * *

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا .

وكثيرا ما كنا معبرا للغزاة ؛ ومطمعا للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا الا اذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأى أنه لا يمكن اغفال تاريخ مصر الفرعونى ؛ ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا ؛ ثم غزو الرومان ، والفتح الاسلامى وموجات الهجرة العربية التى أعقبتها .

وفى رأى أيضا أنه لا يجب التوقف طويلا عند الظروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى (١) ؛ فإن تلك الظروف هى التى وصلت بنا الى ما نحن عليه الآن .

(١) المقصود هنا بالعصور الوسطى : القرن العاشر الميلادى وما بعده ، (القرن الرابع الهجرى) ، حين بدأ الوهن يدب في جسم الدولة الاسلامية وتلازمتها مطامع الامراء وفي هذا التاريخ نفسه بدأت الغزوات الصليبية .

واذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة في أوروبا (١) فقد كانت بداية عهد الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ؛ وخرج بعدها فقيرا ؛ معدما ، منهوك القوى .

(١) بدأت الحروب الصليبية أول ما بدأت في اسبانيا حين انفرط عقد الدولة الاموية في الاندلس ، وتوزعها « ملوك الطوائف » من حكام الولايات وامراء المدن .. فرأى الاسبان فرصة سانحة للقضاء على الاسلام في تلك البلاد ، واستثاروا حماسة المسيحيين أبناء جلدتهم ومن جيرانهم في فرنسا ومن ذوى دينهم في ايطاليا واواسط أوروبا لحرب المسلمين حتى يجلبوا عن شبه جزيرة الاندلس فنشأت المعارك الصليبية الاولى في تلك البقاع ، ثم استمرت ..

لم انتقل صدى هذه الدعوة الى فرنسا وايطاليا واواسط أوروبا . فاذا دعوة اخرى مماثلة تتردد هناك بقصد اجلاء المسلمين من بيت القدس وبلاد الشام فيتنظم تحت رايها الآلاف من ذوى العصبية المسيحية ويتخلون بسيماهم في البر والبحر الى الارض المقدسة ، ومن ثمة كانت تسميتها بالحروب الصليبية ، على ان هذه الحروب التي بدأت في القرن العاشر استجابة لدعوة صليبية لم تلبث ان انقلبت الى حرب توسع واستعمار ، او الى مغامرات فرسان طلبون المجد او يطعمون في الفئمة ، فانظم تحت رايها الافاقون والسفاكون والطامحون الى الامارة والولوعون بالفخامة وتجارة الرقيق واصحاب الشهوات ، الى طوائف من ذوى الففلة الدينية الذين يستجيبون لكل دعوة باسم الدين طمعا في الثوبة دون بحث او تحقيق وكان بين الفارين في هذه الحروب ملوك وامراء فرسان لا يؤمنون بالله خالق ولا يتورعون عن منكر ولا يعرفون فرق ما بين دين ودين ، وانما هي معارك يخوضونها ليكسبوا مجدا وسعة ، وليصيروا حكاما وامراء حين لا مطمع لهم في الحكم والامارة ببلادهم . او ليتسبوا فيما يملكون فيصير لهم عرش هنا وعرش هناك . .

وقد استطاع بعض أولئك الفارين ان يحققوا بعض آمالهم ، فانشئت على امتداد السواحل الشامية او في قلب البأذية بعض امارات ، صليبية ، يجلس على عروشها بعض أولئك الفارين لتتنشأ بين بعضهم وبعض فيما بعد حروب ومنافسات دموية . لا يذكر فيها اسم الله ولا اسم الصليب ...

وفي نفس الوقت الذي هدته المعركة فيه ، شاعت له الظروف
أن يعاني الذل تحت سنايك خيول الطغاة القادمين من المغول
والشركس (١) .

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون
هم الأمراء .

= وقد وقع بيت المقدس في يد بعض أولئك المحاربين الصليبيين وظلت تحت
حكمهم مائة عام ، ثم استردها المسلمون على يد صلاح الدين ...

على أن وقوع بيت المقدس في أيديهم - وكانت هي الهدف والغاية - لم
يحملهم على إنهاء الحروب الصليبية ، فظلت حملاتهم متوالية على سواحل مصر
وتونس وفي مصر وتونس من بلاد المسلمين .

وكان على مصر أكبر الصياد في رد هؤلاء الفزاة المعتدين ، وبكفاحها ارتد
الصليبيون مدحورين فلم تثبت لهم قدم في بلد من بلادنا ، بعد حروب دامت ثلاثة
قرون .. وقد كان اتصال أوروبا بالشرق في الحروب الصليبية ، سببا من أسباب
النهضة الأوروبية التي استكملت مظاهرها في القرن الخامس عشر الميلادي ، فقد
رأى الأوروبيون في بلادنا من صور الحضارة ما فتق أذهانهم وكشف الفسادة من
عيونهم وفتح لهم آفاقا من المعرفة ظهرت آثارها بينهم بعد قليل ، فكانت هذه
الحروب خيرا لهم وشرا علينا .

(١) ولم تكن مصر تفرغ من هم الحروب الصليبية حتى كان المغول الزاحلون
من وراء سد الصين قد بلغوا في تحفهم حدود بلادنا ، بعد أن دمروا في طريقهم
إينا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ووطئت خيلهم بلاد الشام ، ولم يبق إلا
أن ياكلونا كما أكلوا كل الأمم التي اعترضت سبيلهم منذ خرجوا من مجاهلهم
يجتاحون البلاد بالويل والدمار ...

وقد أراد الله أن ينقذ الحضارة ويرد السلام الى الأرض بأيدى المصريين ،
فاتصروا على المغول في موقعة « عين جالوت » من أرض فلسطين فلم تلم لهم بعد
ذلك قائمة ، ولكن هذا الانتصار كان فاتحة لهم جديد ، فقد مكن للمماليك
الشركس - وكان منهم قادة الجيش الذي انتصر على المغول - فصار اليهم عرش
مصر يتوارثونه مملوكا عن مملوك ، ثلاثة قرون ، حتى غلبهم الفزاي العثماني على
ما كان في أيديهم من السلطة في القرن العاشر الهجري - السادس الميلادي -
وفقدت مصر استقلالها وحريتها .

وكانوا يساقون اليها بماليتك فلا تمضى عليهم فترة في البلد
الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا .

وأصبح الطفيان والظلم والخراب ، طابع الحكم في مصر على
عهدهم الذي عاشت مصر في مجاهله قرونا طويلة .

في تلك الفترة تحول وطننا الى غابة تحكمها وحوش ضارية .
كان المماليتك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم
هو على نصيب كل منهم في الغنيمة .

وكانت ارواحنا ؛ وثرواتنا ، وأراضينا ؛ هي الغنيمة ؛ .

* * *

وأحيانا حينما أعود الى تقليب صفحات من تاريخنا ؛ أحس
بالأسى يمزق نفسي ازاء تلك الفترة التي تكون فيها اقطاع طاع ؛ لم
يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا ؛
سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وتوكل في
اعماق نفوسنا تأثيرا يتعين علينا أن تكافح طويلا لكي نتغلب عليه .

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطيني في كثير من الأحيان
تفسيرا لبعض المظاهر في حياتنا السياسية .

أحيانا مثلا يخيّل الى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج
الذي لا يعنيه من الأمر الا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها
طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحيانا أثور على هذا الوضع وأقول لنفسي ولبعض زملائي :

ولماذا لا يقدمون ؛ ولماذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا
فيها أنفسهم ؛ ليتكلموا ويتحركوا ؟

ولا أجد تفسيرا لهذا الا رواسب حكم المماليتك .

كان الأمراء يتصارعون ؛ ويتطاحن فرسانهم في الشوارع
ويهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع
الذي لا دخل لهم فيه . .

وأحيانا يخيّل الى أننا نلجأ الى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا في
أطار الوهم ما نريده ؛ ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن
محاولة تحقيقه ..

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا
أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الرأي والأمر فيه ..

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيرا ما هتفت بها طفلا
صغيرا ، حينما كنت أرى الطائرات في السماء ..

لقد كنت أصيح :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تأخذ الانجليز ، .. »

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا
على عهد المماليك ؛ ولم تكن يومها منصبة على الانجليز ؛ وإنما
حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتي لم تتغير وإن
تغير اسم الظالم ؛ فقد كان أجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلى .. اهلك العثماني ! ، »

وبنفس الروح التي لم تتغير جرى المعنى على لساننا وإن تغير
اسم « الانجليز » باسم العثمانيين طبقا للتغيرات السياسية التي
توالفت على مصر بين العهدين .. !

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدي الذي
فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا
آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد علي كل ظروف المماليك ، وإن حاولت أن
تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر ..

وبدا اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة .. !

وبدأت اليقظة بأزمه جديدة ..

لقد كنا - فى رأى - أشبه بمريض قضى زمنا فى غرفة مغلقة؛ واشتدلت الحرارة داخل الغرفة المغلقة ، حتى كادت أنفاس المريض تختنق ..

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ؛ وتدفقت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى مازال يتصبب عرقا .

لقد كان فى حاجة الى نسمة هواء .. فانطلق عليه اعصار عات وأنشبت الحمى أظفارها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا هو ما حدث لمجتمعنا قاما ؛ وكانت تجربة مخوفة بالمخاطر .

كان المجتمع الأوروبى قد سار فى تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى الى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة اثر أخرى .

أما نحن ، فقد كان كل شيء مفاجئا لنا ..

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فأنهار فجأة ..

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ؛ خصوصا بعد تحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح (١) ؛ فاذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا ؛ ومعبرا الى مستعمراتها فى الشرق والجنوب .

(١) كانت مصر الى القرن الخامس عشر الميلادى هى طريق المواصلات الوحيد بين أوروبا والشرق ، فكانت التاجر الأوروبية تصل الى موانئنا فى البحر المتوسط ثم تعبر البلاد برا الى موانئ البحر الاحمر . ثم تستأنف رحلتها البحرية الى الهند والشرق الاقصى ، ولم يكن لمة طريق فى هذا بين أوروبا والشرق اذ كانت السفن البحرية لم تعرف بعد طريقا تسلكه فى المحيط الاطلسي الى جنوب إفريقيا تتفاد من لمة الى المحيط الهندى ، ثم اكتشفت البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن الخامس عشر ، فتحولت اليه تجارة أوروبا ، وبدا عهد العزلة فى مصر .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي وصلنا إليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواخنا ما زالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر ؛
وان سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ؛ ثم
القرن العشرين ..

وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي نخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنيا والسباق
مروعا مخيفا ..



وما من شك فى أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى
عام قوى متحد فى بلادنا ، فإن الفارق بين الفرد والفرد الكبير ؛
والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون
ماذا يريدون ، وأن أجمعهم لا يتخذ على طريق واحد يسرون فيه ،
ثم أدركت بعدها أنني أطلب المستحيل ؛ وأنى أسقط من حسابى
ظروف مجتمعا ..

النا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ؛ وما زال يفور ويتحرك
ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجى
مع باقى الشعوب التي سبقتنا على الطريق .

وأنا أعتقد ، دون أن أكون فى ذلك متملقا لعواطف الناس ؛
أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض
لهذه الظروف التي تعرض لها مجتمعا ؛ وكان يمكن أن تجرفه هذه
التيارات التي تدفقت علينا ؛ ولكننا صمدنا للزلال العنيف .

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ؛ ولكننا
بصفة عامة ؛ لم نقع على الأرض .

أنا أنظر أحيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التي
تعيش فى العاصمة ..

الأب مثلاً معمم من صميم الريف .
والأم سيدة منحدره من أصل تركى .
وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الانجليزى .
وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .
كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين
.. أنظر الى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها
والتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :
- سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ؛ وسوف يكون
وحدة قوية متجانسة ؛ انما ينبغى أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة
الانتقال .

تلك اذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه
هى البنابيع التى تجرى منها أزمنا ، فإذا أضيف الى هذه الجذور
الاجتماعية ؛ ظروف من أجلها طردنا فاروق ، من أجلها نريد تحرير
بلادنا من أى جندى غريب - اذا أضيف هذا كله ، لخرجنا الى الافق
الواسع الذى نعمل فيه ؛ والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية ؛
وتزمر فى جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر
الرعود ، والذى قلت انه من الظلم أن يفرض فيه علينا حكم الدم ؛
مع مراعاة كل هذه الظروف والملاسات .

واذن ما هو الطريق ؟
وما هو دورنا على هذا الطريق .
أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .
وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ؛ لايزيد ولاينقص ..
الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .
وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقاً معيناً ؛
وطال عليها الطريق ؛ وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص
وقطاع الطرق ؛ وضلها السراب ، فتبعثرت القافلة ؛ كل جماعة
منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى اتجاه .

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع
الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ، ثم يتركهم
يوصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .
ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت
واهما وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

إننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لتقوم به .
إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ؛ وأن نجري
وراء لشاردين فنردهم الى حيث ينبغي أن يبدأوا المسير ، وأن
نلحق بالسائرين وراء السراب فنقتنعهم بعيب الوهم الذى يجرون
وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة ؛ وكنت
أعلم مقدما أنها ستكون لنا الكثير من شعبيتنا .

ولقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ؛ وأن نخاطب عقول الناس
وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس
ما يريد الناس أن يسمعوه !

وما أسهل الحديث الى غرائز الناس ؛ وما أصعب الحديث الى
عقولهم . . .

وغرائزنا جميعا واحدة ؛ أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت .
وكان ساسة مصر فى الماضى من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة ؛
فاتجهوا الى الغريزة يخاطبون بها ، أما العقل فتركوه هائما على وجهه
فى الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع أن نملا أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التى لا
تخرج عن حد الوهم والخيال ؛ أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم
تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم
تبع من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تأخذ الانجليز »
تماما ؛ كما كان أجدادنا تبج أصواتهم أيام الممالك من كثرة
« شتافهم » :

« يا رب يا متجلى .. اهلك العثماني »
وبعنها لا شيء .. !

لكن أكانت تلك مهمتنا التي شأها لنا القدر ؟
وما الذي كنا نستطيع أن نحققه فعلا اذا سرنا في هذا السبيل ؟
ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثورة
يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التي تواجهها ؛ وقدرتها على الحركة
السريية . وأضيف الآن الى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ
البراقة ، وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن من
شعبيتها ومن الهماف بحياتها والتصفيق لها .. !
والا فاننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .

وكثيرا ما يجيئني من يقول لي :
- لقد أغضبتم كل الناس ..
وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائما :
- ليس غضب الناس هو المؤثر في الموقف ؛ وإنما السؤال :
هل كان الذين أغضبناهم يعملون لصالح الوطن أو لغيره ؟ ..
انا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك ..

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفيينا من
يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفيينا من لا يملك قطعة يدفن
فيها بعد أن يموت ؟ .. ١٩

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء .. !

ولكن هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم
وفسادهم وصراعهم على مغنم الحكم ؟ ..

وأنا أدرك أننا أغضبنا عددا كبيرا من الموظفين ..

ولكن هل كان يمكن أن نعطي أكثر من نصف ميزانية الدولة
مرتبات للموظفين ولا نستطيع - كما صنعنا بالفعل - أن نخصص
أربعين مليوناً من الجنيهاً للمشروعات الانتاجية ؟ ..

ماذا علينا لو كنا فتحنا - كما فعل غيرنا - خزائن الدولة ووزعنا
ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان .. وليكن - أيضا -
أن يجيء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها
أصلاً وأساساً ؟ ..

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعاً وغيرهم .. ولكن ما هو
الثمن الذي كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله في مقابل هذا
الرضا ؟ .. ؟ .. ؟ ..



ذلك دورنا الذي حدده لنا تاريخ وطننا ؛ ولا مفر أمامنا من أن
نقوم به مهما كان الثمن الذي قد ندفعه .

ولم نخطئ أبداً في فهم هذا الدور ؛ ولا في إدراك طبيعة
الواجبات التي يلقيها علينا ..

تلك خطوات لإصلاح آثار الماضي ورواسبه ؛ مضينا فيها
وتحملنا من أجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا أننا لا نملك هذا وحدنا .

من أجل ضمان الحياة السياسية في المستقبل ، ذهبنا إلى عدد
من قادة الرأي في مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم :

- ضعوا للبلد دستوراً يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية في المستقبل ذهبنا الى أكبر
الاساتذة في مختلف نواحي الخبرة وقلنا لهم

— نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه •

وكان مجلس الانتاج ••

تلك حدودنا لم نتعدها ••

ازالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما كان الثمن ••
واجبنا •

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الراى
والخبرة فرض لازم عليهم ؛ وليس لنا أن نستأثر به دونهم ؛ بل ان
مهمتنا تقتضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر •• مصر
القوية المتحررة •• !

الجزء الثالث

بعد غيبة ثلاثة شهور . الزمان والكلان . القدر لا يزال . دوائر
ثلاث . دور يبحث عن بطله . فلسطين ليست بلدا غربيا . لقاء مع فقر
فلسطين . افلى اسرار الطيران . افكار في ميدان القتال . الارض
والنجوم . نظرة الى مذكرات وايزمان . الكفاح الواحد وعناصره . القوة
بالارغام . مسئولياتنا في افريقيا . الحكمة . الحقيقة في الحج .

مرة ثالثة أعود الى فلسفة الثورة ..

أعود اليها بعد غيبه طويلة امتدت الى أكثر من ثلاثة شهور
حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجِد الساعات.
التي أنسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؛ فعصفت رياح
الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها في.
الفضاء .

ولكن الرياح التي عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر.
نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تَجِر على ورق ؛ ولكنها ظلت.
تدور في تفكيري وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ؛ سواء
في ذاكرتي أو في الأيام ؛ تضيفها اليها لتكمل بها صورة صحيحة
واضحة .

ولكن ما هي الصورة الصحيحة الواضحة التي أريد أن أرسمها
هذه المرة ؟ .. وما هي علاقتها بالمحاولات التي قمت بها قبل ذلك ؛
في الجزء الأول ؛ ثم في الجزء الثاني من هذه الخواطر عن فلسفة
الثورة .. ؟

لقد تحدثت في الجزء الأول عن بداية الثورة في نفوسنا كأفراد،
وفي نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ؛ وعن الثورة في تاريخ
أمتنا ؛ وعن يوم ٢٣ يوليو في هذه الثورة ..

وفي الجزء الثاني تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ؛ وكيف
حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ؛ سواء في نظرنا المليئة بالعبر
الى الماضي ، أو في تطلعننا المفعم بالأمل الى المستقبل .

واذن ؛ فقد كان حديثي في الجزأين السابقين عن الزمان ؛ ومن
هنا أشتت بأن المكان يطالب بحقه ، واذن ؛ فليكن الحديث في هذه
المرة عنه ..

وليس هدفي أن أدخل في بحث فاسفي معقد عن الزمان
والمكان ؛ وإنما الذي لا شك فيه هو أن العالم كله ، وليس وطنه
فحسب ؛ هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

وإذا كنت أقول أننا في تصويرنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ؛ فاننا أيضا وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان .

وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر ؛ نرتدى ملابس التي تبدو لعيوننا مضحكة ، وننثوه في أفكاره التي تظهر أمامنا اليوم أطيافا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من الامسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة « ويك » النائية المهجورة في تيه الباسفيك .

الزمان ، اذن ، يفرض علينا تطوره . . .
والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن امضى مع الزمان ، فلاحاول هذه المرة ان أتجول في عالم المكان .

وئمة شيء يجب أن نتفق عليه أولا وقبل أن نمضى في هذا الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

ان قال لى احد ان المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التي نعيش فيها ، فانى أختلف معه .

وان قال لى احد ان المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية. فانى أيضا أختلف معه .

ولو كان الامر كله محصورا في حدود عاصمتنا أو في حدود بلادنا السياسية ، لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب ، وعشنا في برج عاجي نحاول أن نتعبد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وخروبه وأزماته ، تلك التي تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة . .

وذهبت الأيام التي كانت فيها خطوط الاسلاك الشائكة التي تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر امام كل بلد من ان يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من اين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه ، وكيف يمكن ان يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..

ولم يعد مفر امام كل دولة من ان تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان ، وترى ماذا تستطيع ان تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى ، وميدان نشاطها ودورها الايجابى في هذا العالم المضطرب ..

وانا اجلس احيانا في غرفة مكتبى واسرح بخواطرى في نفس هذا الموضوع اسائل نفسى :

— ماهو دورنا الايجابى في هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذى يجب ان نقوم فيه بهذا الدور .. ؟

واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من ان يدور عليها نشاطنا وان نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لا يهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع ان ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

ايمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام .. ؟

ايمكن ان نتجاهل ان هناك قارة افريقية شاء لنا القدر ان نكون فيها ، وشاء ايضا ان يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد .. ؟

ايمكن ان نتجاهل ان هناك عالما اسلاميا تجمعننا وأياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ ؟

وكما قلت مرة : ان القدر لا يهزل ..

فليس عبثا أن بلدنا في جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا يقع في شمال شرق أفريقيا ، وبطل من عل على القارة السوداء التي يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمرها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التي لاتحد .

وليس عبثا أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة - تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وانقلته عندما ردت غزو المغول على أعقابها في عين جالوت (١) .

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا ، لانستطيع مهما حاولنا أن ننساها أو نفر منها .



ولست أدري لماذا أذكر دائما ، عندما أصل الى هذه المرحلة من افكاري وأنا جالس وحدي في غرفتي شاردا مع الأفكار . قصة مشهورة للشاعر الإيطالي الكبير « لويديجي بيراندلو » اسمها (ست شخصيات تبحث عن ممثلين) .. ؟!

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولية مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه .

(١) دمر المغول في طريقهم اليها كل مقومات الحضارة في البلاد التي وطنتها أقدامهم ، ثم دمرتهم مصر ، فصار عليها وحدها أن تحمي تراث الحضارة وأن تنشر آثارها فقد ذهب كل التراث ، في كل البلاد ، ولم يبق الا مصر .

وقد عرفت مصر واجبها في هذا الشأن ، فامادت الخلافة العباسية ، وفتوها ، وحفظت لها رسومها وحققها في التوجيه والنصح والارشاد ، ولاهت بين حالة مصر السياسية في ذلك الزمان وبين واجبها هذا الجديد ، فلم تلبث أن صارت حضارة الإسلام ، عليها عبء التوجيه العام في كل بلاد المسلمين ، ومن علومها وفنونها وحضارتها يقتبس المسلمون في شتى بقاع الأرض ، وباسمها يتقنى كل عربي وكل مسلم في الشرق والغرب .

وان ظروف التاريخ ايضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم نجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدري لماذا يخيل الى دائما أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراهاثما على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به ، ثم لست أدري لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير اليها أن نتحرك ، وأن نهض بالدور ونرتدى ملابسه فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به .

وإبادر هنا فأقول أن الدور ليس دور زعامة .

انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابى في بناء مستقبل البشر .



وما من شك في أن الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الازمات ، وحين وقعنا تحت سنانك خيل الفراة كانوا معنا تحت نفس السنانك (١) .

١ - (١) حين زحف الصليبيون على بلادنا ، كانت فلسطين ، ولبنان ، وسورية ، ومصر ، وشمال افريقية ، هدفا مشتركا من أهداف الاستعمار الصليبي .

(ب) وحين زحف المغول على بلاد المسلمين والعرب ، كانت مصر هدفا للمغول الأخير ، بعد أن دمرت بغداد ووطئت بلاد الشام جميعا .

(ج) وحين اغار العثمانيون على بلادنا وسلبونا استقلالنا في القرن السادس عشر ، فعلوا مثل ذلك بالشام ، والعراق ، والجزيرة العربية ، وشمال افريقية ، الى حدود مراکش .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضا بالدين ، فنقلت مراكز الإشعاع الديني ، في حدود عواصمها ، من مكة الى الكوفة ، ثم الى القاهرة (١) ثم جمعها الجوار في اطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وانا اذكر فيما يتعلق بنفسى ان طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري وانا طالب في المدرسة الثانوية اخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنيا قوميا في فلسطين ، اغتصبته ظلما من اصحابه الشرعيين (٢) .

وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا اخرج في حماسة ولماذا اغضب لهذه الارض التي لم أرها ؟ لم اكن اجد في نفسي سوى اصدااء العاطفة .

= (د) وحين بدأ الاستعمار الاوربي - بمصطلحاته الجديدة - بيسط سلطانه على بلادنا ، لم يستثن بلدا واحدا من بلاد العرب .

لقد كنا جميعا هدفا مشتركا في كل مراحل التاريخ .

(١) نشأ الاسلام بمكة ثم هاجر النبي عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، فصارت هي عاصمة الاسلام في عصر النبي والخلفاء الثلاثة من بعده ، ثم صارت الكوفة هي عاصمة الاسلام في خلافة علي - ثم صارت دمشق ، ثم صارت بغداد ، ثم انتقلت الخلافة والخليفة الى القاهرة في القرن السابع الهجري ، بعد ان دمر المغول بغداد .

(٢) كان اول عدوان بريطانياسا على حق العرب في فلسطين ، ان وزيرها « بلفور » وعدد اليهود في ٢ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، بان يتيح لهم وطنيا قوميا في فلسطين ثمنا لما ادوا لبريطانيا من خدمات في الحرب العالمية الاولى ولكنه لمن يؤديه من غير مايملك ..

ومنذ ذلك التاريخ ، اعتبر يوم ٢ ديسمبر من كل عام ، يوما مشثوما من ايام العرب يعلنون فيه سخطهم على غدر بريطانيا ، وحرصهم على الاحتفاظ بفلسطين عربية لاهلها .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع عندما أصبحت طالبا في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الاعمدة التي تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت ازمة فلسطين كنت مقتنعا في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالا في أرض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس .



وأذكر يوما ، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا (١) واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين ، وذهبت في اليوم التالي أطرق باب بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ، وكان ما يزال يعيش في الزيتون وأقول له :

— انكم في حاجة الى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين ، وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك في أى وقت تشاء ..

وقال لى الحاج أمين الحسيني أنه سعيد بهذه الروح . ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئا .

(١) لما اشتدت مقاومة العرب في فلسطين للاستعمار الصهيوني ، أرادت بريطانيا أن تعالج الأمر على وجه ما ، لتكسر حدة المقاومة العربية ، فاستضدت قرارا من الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، فأبى العرب أن تمزق وحدة بلادهم ، وازدادوا هيجا وثورة ونادت لثورتهم البلاد العربية جميعا .. وخلال هذه الثورة ، كان الضباط الأحرار في مصر يدبرون أمرهم ليقوموا بواجبهم في الكفاح من أجل عروبة فلسطين .

ثم قال الحاج أمين :

- سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد أيام ، وكان رده الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض .

ولم نسكت ..

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبـد العزيز تـذكـ المستعمرات اليهودية جنوبى القدس . وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت اليوم الى مجلس قيادة الثورة .

وأذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار :

كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق ، واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى (١) . وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبد اللطيف البغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لا تملك طيرانا يساعدها فى المعركة ويرجح النصر الى كفتها ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية ، لكن ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟

ولم يتردد حسن ابراهيم وعبد اللطيف البغدادى ، وانما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة .

(١) هو مجاهد عربى ، اصله من لبنان ، وكان له بلاء مشهود فى معارك فلسطين وهى لم تزل تحت الانتداب البريطانى ثم كان قائدا لقوات التحرير العربية فى حرب فلسطين .

ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة - بما فيها سلاح الطيران - حذرا متيقظا .
ومع ذلك لم يجد اليأس نفرة ينفذ منها الى تفاصيل الحطة .

بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة . . . وبرز فيها نشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمل في نفوس عدد من الطيارين .

ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السر .

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقوا بعدها الى الجو ليشتركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الارض المقدسة . ثم يتجهون بعد ذلك الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الاحوال في مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التي أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد .

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار - والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السبر الكبير - أن هذه المخاطر الجريئة لم تكن حبا في المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسنا ، انما كانت وعيا ظاهرا لايماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا احكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة .

ولم تتم الحطة يوما . . . لأننا لم نعلق الاشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين .

ولست أريد أن أدخل في تفاصيل حرب فلسطين الآن ،
فذلك بحث يتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعني من حرب فلسطين
درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماسة ،
واذن فهذه الشعوب جميعا تشارك في شعورها وفي تقديرها
لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المראה والخيبة واذن فهي
جميعا ، كل منها في بلادها ، قد تعرضت لنفس العوامل وحكمتها
نفس القوى التي ساقتها الى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .
ولقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة في خنادق عراق المنشية (١)
وفي جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتبية السادسة التي كانت تقف
في ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم في أكثر الأحيان .

وكنت أخرج الى الاطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو
ثم أصبح بعيدا مع الخيال .

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضي بى بعيدا الى آفاق
النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها .

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى .

هذا هو المكان الذى نقب محاصرين فيه هذه مواقع كتيبتنا ،
وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

(١) منطقة الفالوجة ، وكان لحاميتها بلاد عظيم في الدفاع عنها ، فقد صمدت
لحصار العدو اشهرًا بلا زاد ولا عتاد ، حتى ضاعى المحاصرون ذرعا ولم ينخد صبر
المحصورين او تضعف نفوسهم ، وقد عرفت مصر لابطل الفالوجة بلادهم في هذه
الحركة فاستقبلتهم استقبالًا عظيمًا وكان اسمهم على كل لسان في مصر وفي كل
بلد عربى ... وكان بينهم جمال عبد الناصر ..

وهذه قوات أخرى لنا .. هي أيضا محاصرة لا تستطيع الحركة
الواسعة وإن بقي لها مجال للمناورة المحدودة .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها
الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذي تصنعه بنا
نحن القابعون في منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وفي
المصلحة المشتركة وفي الدافع الذي جعلنا نهول الى أرض فلسطين .

هذه هي جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلها هي أيضا
محاصرة .. بفعل الظروف التي كانت تحيط بها والتي كانت تحيط
بحكوماتها .. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا
ارادة الا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة
محبوكة أخفت عنها عمدا حقيقة ما يجري ، وضللتها حتى عن
وجودها نفسها .

وأحيانا كنت أهيبط من ارتفاع النجوم الى سطح الأرض ،
فأحس أنني أذوق غن بيتي وعن أولادي ، ولا تعينني الحدود الموهومة
والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما التقى في تجوال فوق الاطلال المحطمة ببعض
أطفال اللاجئين الذين سقطوا في برائن الحصار بعد أن خربت
بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في
مثل عمر ابنتي ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخبز والرصاص
الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش
أو خرقة قماش .

وكننت دائما أقول لنفسي :

— قد يحدث هذا لابنتي .

كننت مؤمنا بأن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث —
ومازال احتمال حدوثه قائما — لأي بلد في هذه المنطقة مادام مستسلما
للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن .

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كلا واحدا .
وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي .
كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غدا ، وفي بيروت ، وفي عمان ، وفي بغداد وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفس منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل . . بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعا .

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى اسرائيل نفسها لم تكن الا اثرا من آثار الاستعمار .
فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أي أمل في واقع .

وأنا أكتب هذه الحواطر وأمامي مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية اسرائيل ومنشئها الحقيقي وهي المذكرات التي نشرها في كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفني فيه .

يستوقفني قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت في العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : ألمانيا وبريطانيا .

أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف .

ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان :

« ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف هرتزل (١) يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

واننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطاباً من اللورد لاترسون نائباً عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطننا قومياً .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ، ألفتنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا في القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر الذي أظهر كل العطف على أمانينا في الوطن القومي .

ولكن اللجنة لم تجد في منطقة سيناء ما يفي بالعرض الذي كنا من أجله نريد الوطن القومي .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤال على الفور :

— لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا ؟ .

وقلت لبلفور :

— ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن اغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا

(١) هرتزل أو هرتل : صاحب فكرة الصهيونية الأولى . انظر كتاب . هذه هي الصهيونية . من مجموعة « اخترنا لك » .

إذا اغفلنا الجانب الروحي فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى
القومى ..

ثم قلت لبلفور:

— ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن ،
هل تقبل ؟ .. ؟

ويستوقفنى أيضا قول وايزمان :

« وعدت الى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من
رجوعى أننى دعيت الى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب
البريطانى فى فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها
قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور ، وكان
هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا فى لندن القانونى المشهور ابن كوهين ، وهو من
أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان ايريك فوريس أدام
سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

وقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير :

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيدها بريطانيا
فيها بوعده بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس
الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » :

وقال كيرزون أنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب
عند قراءتها ، وقال أنه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين »

وكننت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان فى « التجربة

والخطأ . ولكننا جنيحاً نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجرائم الأولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها . . . !

وأعود الى الذي كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقها في «الغالوجة» وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي ، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول للنفس :

— مادامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد . . . والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة — فلماذا تتشتت جهودنا ؟ . . .

ثم زادني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته .

فقد بدأت خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف اني كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التي تسد الطريق الى الكفاح الواحد . ولكنني بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيراً في اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة هي أن العقبة الأولى في طريقنا هي (الشك) وكان واضحاً أن بذور هذا الشك قد بذرها في نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه لكي يحول بيننا وبين الكفاح الواحد . . . !

وأذكر أنني جلست في الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب : وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذي أقوله . . .

وكان يقول العبارة ثم يلتفت الى زميله ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه ، بدل أن يحاول استكشاف أثره فى أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما فى نفسك من شكوك ، وقل لى كل ما فى قلبك ، وأنظر الى وفى عيني ولا تدر وجهك ٠٠ !

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، ايجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تخرج ، وبلا عنف لمواجهة الكفاح الواحد .



ولست أشك دقيقة أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول : أننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا .

اننا نخطئ فى تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، انما القوة أن تتصرف ايجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحسب :

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مَادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة أنبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الأول .

أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة

العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذي يعتبر بحق ملتقى طرق
الانعام ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث : وهو البترول الذي يعتبر عصب الحضارة
المادية ، والذي بدونهُ تستحيل كل أدواتها - المصانع الهائلة
الكبيرة لكافة أنواع الانتاج ، وسائل المواصلات في البر والبحر
والجو ، أسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب
أو الغواصة المستترة تحت أطباق الموج - تستحيل كلها قطعاً من
الحديد يعلوها الصدا لا تنبعث منها حركة .. أو حياة ..

وبودي لو وقفت قليلاً عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقة
مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجاً للمناقشة
في أهمية مصادر القوة في بلادنا .

ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف
البترول ، وبودي لو كان لكل فرد من أفراد شعبنا أن يقرأها
ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها
واحصائياتها (١) .

♦ تقرر هذه الرسالة مثلاً أن العمل لاستخراج بترول البلاد
العربية لا يتكلف كثيراً من المال .

لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليوناً من الدولارات في
كولومبيا ابتداءً من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا في سنة
١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليوناً من الدولارات في فنزويلا
ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليوناً من الدولارات في جزر
الهند الهولندية وأخيراً عثرت على الزيت .

وكانت النتيجة الأخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا
الموضوع :

(١) انظر كتاب البترول والسياسة العربية من مجموعة « اخترنا لك » .

٧٨ سنتا • ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا •

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات •

♦ ان عاصمة انتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التى مازالت آبارها بكرا والتى مازالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن والتى مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف •

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم •

وثبت أيضا أن متوسط انتاج البئر الواحدة فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة •

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا •

٤٠٠٠ برميل فى المنطقة العربية •

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت •

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهذا ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة •

هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهي الدائرة العربية .

فإذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهي دائرة القارة الافريقية ، قلت دون استفاضة ودون اسهاب : اننا لن نستطيع بحال من الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبديهي ، هو أننا في أفريقيا (١) .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع اليها ، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجي كله . ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا في المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان - الشقيق الحبيب - تمتد حدوده الى أعماق أفريقيا ، ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها .

والمؤكد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذي يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم

(١) انظر الكتب الآتية من مجموعة « اخترنا لك » :

- زعماء المصائب الاستعمارية .
- افريقيا حالم الاستعمار البريطاني .
- اصواء على الحبشة .
- شمال افريقية في الماضي والحاضر والمستقبل .
- جنوب افريقيا جنة البيض وجحيم الملونين .

خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذي يجري في أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعيننا .

ولسوف أظل أحلم باليوم الذي أجد فيه القاهرة معهدا ضخما لأفريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا ويخلق في عقولنا وعيا أفريقيا مستنيرا ، ويشترك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

ثم تبقى الدائرة الثالثة . . الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتي قلت انها دائرة اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد ايماني بمدى الفاعلية الايجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية الى المملكة العربية لتقديم العزاء في وفاة عائلها الراحل الكبير (١) .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطر تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى .

- يجب أن تتغير نظرتنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة الى دخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلمائها في كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ، ليضعوا في هذا البرلمان الاسلامي العالمى خطوطا عريضة.

(١) توفي الملك عبد العزيز آل سعود ، في شهر ربيع الاول سنة ١٣٧٤ (نوفمبر سنة ١٩٥٤) .

السياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد
بعد عام .

يجتمعون خاشعين .. ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع ..
لكن عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم
حاليين بحياة أخرى .. ولكن مؤمنين ان لهم مكانا تحت الشمس يتعين
عليهم احتلاله في هذه الحياة ..

وأذكر أنني قلت بعض خواطري هذه لجلالة الملك سعود ، فقال
لي الملك :

– ان هذه هي فعلا ، الحكمة الحقيقية في الحج .

وفي الحق انى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

وحين أسرح بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في أندونيسيا
وخمسين مليونا في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو وسيام وبورما
وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، وأكثر من مائة مليون في
منطقة الشرق الاوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتي ،
وملايين غيرهم في أرجاء الارض المتباعدة – حين أسرح بخيالي الى
هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس
كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن ان يحققها تعاون بين هؤلاء
المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية
بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة .

ثم أعود الى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به .

ذلك هو الدور ، وتلك هي ملامحه وهذا هو مسرحه .

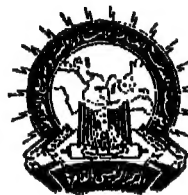
ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به .



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روض الفرج

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } للبريد
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }



مطابع الإسلام القومية

١٥٧ شارع عبید - روض الفرج

تلفون } ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨٨ }

٣ قروش